اسماء بنت ابى بكر (١)

للأستاذ محمد بيلى الفار

سيداتى — سادتى

أقرأ عليكم الليلة صفحة من صفحات المجد الباقية سجلها بأعمالها العظيمة أسماء ، وأسماء بنت أبى بكر وأبو بكر قرشى من سادات بنى تميم مصابيح الظلام أولته قبيلته زعامتها حين استند ساعده ، لما توسمت فيه من خلال الخير فقد كان رقيق الطبع رزيناً لا يغلبه الهوى حسن الحديث حلو المعاشرة . قال ابن هشام : كان أبو بكر رجلا محبباً سهلا وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر وكان رجلا تاجراً ذا خلق معروف وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته .

أما أمها فقتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر والتاريخ لم يحدثنا عما يكشف عن صورة واضحة كهذه الأم النجيبة — ولكن حسبها أن يختارها أبو بكر زوجا له فالرجل الذى عرفه التاريخ بصفات العظمة والحصافة — لا يختار زوجه هواه بل بعقله ورويته — فقتيلة بما لاشك فيه زوج صالحة ، لأن أبا بكر — العالم النسابة بجيد الاختيار — وقتيلة أم صالحة أيضاً لهذا الاختيار ولما أنجبت من ولد ولئن لم يكن لها من الولد غير أسماء إنها بهذه النجيبة أم صالحة وجد صالحة فأسماء إذاً غراس طيب فى تربة طيبة — وأسماء شجرة مباركة تعهد تهايد صناع قد استكملت ما يجعل أشجارها تؤتى ثمارها ناضجة شهية بعد حين — وأسماء إذاً قد تخرجت فى مدرسة الشرف والحصافة والعلم ولقنت من أبيها ومن كان يجالس أباها ما يثقف العقل ويوسع الأفق ويهذب النفس ويبصر الطفل بدنياه .

---

(١) القيت من محطة الاذاعة بمصر

تخرجت أسماء فى مدرسة زعيم قومه ومن كان فيصلا فى أمورهم يقول فيصدق وإن قال غيره ما يقوله كان غيره موضع الريبة والتكذيب .

وإذا كان الطفل صورة بيته ، أبيه وأمه فأسماء صورة صادقة واضحة لهذا البيت الغنى بالأدب والعلم والذى هو أحد البيوت العشرة التى انتهى إليها الشرف فى قريش الجاهلية والذى بقى شرفه موصولا بأبى بكر فى الاسلام .

ومن الحق أن نقول ، بعد أن درسنا سيرة أبى بكر فى بيته ، كما قال الأستاذ العقاد : إن النشأة فى حياة أبى بكر البيتية لا تتمثل فى شىء كما تتمثل فى نشأة بنتين عائشة وأسماء . وعائشة رضى الله عنها ليست من موضوع حديثنا .

أما أسماء ذات النطاقين فما حمد الناس فضيلة لامرأة بنتاً وزوجا وأما إلا كانت أسماء أجمل نموذج لهذه الفضيلة ، وأسمى صورة من صورها .

أسلمت أسماء مع أبيها ، فهى من الأوليات السابقات — وكتبت أسماء لنفسها فى هجرة الرسول وصاحبه إلى المدينة صحيفة شرف مخلدة تقرأ مقرونة بالتمجيد والاعجاب .

خاطرت بنفسها لاخفاء هجرة الصاحبين على المتربصين والمستشرفين فكانت فى ذلك مستودع سر هائل حملته أمينة عليه ومن حولها شياطين قريش يلحون فى تعرف أخبار محمد ويبذلون فى ذلك أموالهم ونفوسهم — وأسماء موطن من مواطن هذا التقصى وهدف من أهداف ذلك البحث لأنها ابنة أبى بكر صديق محمد الوفى وصاحبه الامين .

دلت أسماء بكتمان السر والاحتفاظ به موفورا على أنها ممن يقدرون الأسرار ويحتفظون بالامانات وإن كانوا فتيانا قد كثرت من حولهم المحاولات لاستخلاص ما تحمل قلوبهم من أسرار عظام . كانت أسماء تمسى الصاحبين ، وهما فى الغار يستمدان للهجرة ، كل ليلة بالزاد والماء وبما عسى أن تكون سمعته أو رأته من أحاديث القوم وأخبارهم .

ولما كانت ليلة السفر لم تجد أسماء لسفره الطعام وقربة الماء ما تشدان به الى الراحلة غير نطاقها فخرجت عنه وجعلته شقتين شدت بأحداهما السفرة وبالاخرى

القرية فسميت لذلك ذات النطاقين ولئن سلمت أسماء من الليل ومخاوفه والطريق وعثراته إنها لم تسلم من أذى قومها فلقد أحاط بدارها ذات صباح رجال من قريش ليتعرفوا أمر أبيها فلما تجاهلت خبره أمعنوا فى أذاها حتى لطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها فما استكانت وما ضعفت بل ردت عزيمتها وإيمانها القوم خاسرين ذلك شأن أسماء الفتاة .

أما أسماء الزوج فقد كانت من المثل العليا للزوج المخلصة تشارك زوجها نعماء الحياة وبؤسها وهى تؤمن أن ذلك واجبها .

تزوجت الزبير بن العوام وكان فقيراً لا مورد له فلن تر عيباً — وهى — بنت أبي بكر السرى المثرى — أن تعلف فرسه وأن تطحن بيديها النوى لبعيره وأن تسقى له الماء وتخرز الدلو وأن تحمل على رأسها علف دوابه مسافة ميلين فى الذهاب ومثلهما فى الاياب وما زال هذا شأنها حتى علم أبوها مصادفة بما تحمل من جهد ومشقة فى خدمة زوجها فأعانها بخادمة تحمل عنها بعض ما تحمل من أعباء تقال قامت بها زمانا وهى من علمتنا من شرف المجد وعزة البيت وثرائه ولكن العظيم لا يمن ولا يفخر بل قد يظن أن نفسه لم تقم بشىء إلى جانب ما يجب أن تقوم به .

هذا مثل من أمثلة أسماء الزوج .

أما أسماء الأم ففيها يقول صاحب أشهر مشاهير الاسلام إن أسماء هذه رضى الله عنها أشجع نساء الاسلام وأثبتهن جأشا وأعظمهن تربية للولد على الشهامة وعزة النفس وحب أسماء أن يكون ابنها عبد الله المقدام الجرىء العالم الفقيه اللسن الفصيح أول مولود فى الاسلام بعد الهجرة والذى خلع قلوب الأمويين واستخلص لنفسه من براثنهم ملك الحجاز والعراق فدان له القطران بالطاعة زمانا .

بعثت فيه أمه ما وهبت من صفات العظمة والسمو فكان منبتا كريما لغراس هذه النفس الابية الكريمة .

كانت نتيجة الصراع بين عبد الله بن الزبير والامويين أن ضيقوا عليه الخناق فى مكة فانفض عنه الأعوان والأنصار وخذله الأهل والولد

وبذل له أعداؤه ما شاء من أمن وجاه وغنى إن رجع عن قصده وانقطع عن السير فى طريقه فاستشار أمه فى موقفه قال ! يا أماه لم يبق معى إلا اليسير ومن لادفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك ! فما خلع الهول قلبها كما يخلع قلوب النساء ولاضعفت ضعف الامهات حنوا على الابناء ولو فعلت لكان لها عذر وألف عذر ولكن أسماء قابلت الامر العظيم والروع المفجع بفؤاد غير متصدع وأقبلت على ابنها تقول ! ياولدى إن كنت على حق تدعو اليه فامض عليه فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية فيتلعبوا بك وإن قلت إنى كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى فليس هذا فعل الاحرار ولا فعل من فيه خير . كم خلودك فى الدنيا ! القتل أحسن مما يقترع به يا ابن الزبير والله لضربة بسيف فى عز أحب الى من ضربة بسوط فى ذل هذه كلمات أم عجوز جاوزت المائة قد تعاقبت عليها ملمات الزمن وأحداث الايام فكف من الاسى بصرها وضعف جسمها بيد أن نفسها وكرامتها وشجاعتها وعزيمتها مازالت فتية قوية فلم تلن فى موطن تذوب فيه قلوب الاقيال والصناديد ولا تحتمله الافئدة ولو كانت قطعا من حجر وحديد .

قالت لابنها ما قالت فكان آخر ما سمع وآخر ما وعى — وقع لعبد الله بعد القتل ما كان يخشى من تمثيل وتصليب فجاءت أمه الحجاج تسأله أما آن لهذا الفارس أن يترجل ! فقال الطاغية فى غطرسة وكبرياء المنافق — فأجابت مغضبة والله ما كان منافقا وقد كان صواما قواما فاهتاج الحجاج لردها وقال اذهبى فانك عجوز قد خرفت فقالت لا والله ما خرفت ولقد سمعت الرسول عليه السلام يقول ! يخرج من ثقيف كذاب ومبيد أما الكذاب فرأيناه — وأما المبيد فأنت هو .

موقف نبيل جازت اسماء فيه إلشتائم بشتمه ولم تبال سلطانه القاهر ولا أن ترجع من لدنه غير مدركة غايته .

طوى الموت أسماء بعد ليال من ابنها فى العام الثالث والسبعين من الهجرة فضم قبرها عظيمة ينبغى أن تقام لذكرها مواسم المديح والثناء وأن يكون تاريخها بعد ما يسمر به الآباء والأبناء ؟

محمد بيلى الفار
المفتش بالمعارف